بعبارة أدق ، انه يستخدم بمثابة نموذج ، وذلك بالضبط كي يحققه العمل » . ٢ ــ انطلاقه من السؤال العربي البالغ الدلالة « من هو الاخر ومن أنا » مركزا في فهمه للتكون الايديولوجي العربي من خلال العلاقة بالغرب . علاقة القهر والاستعباد التي تأخذ على المستوى الايديولوجي شكل التحدي اليومي . هل العرب أمة قابلة للحياة ؟ وكيف تدخل العرب مسار التقدم الحضاري الذي يصنعه الغرب ؟

من هذين المنطلقين يحاول العروي ان يمسك بأربع قضايا رئيسية شكلت مادة الايديولوجية العربية المعاصرة : ١ ــ العرب والاصالة . ٢ ــ العرب والاستمرار التاريخي . ٣ ــ العرب والعقل الكوني . ٤ ــ العرب والتعبير . هذه القضايا الاربع تشكل باستمرار الهاجس الايديولوجي العربي انطلاقا من المقدمة النظرية التي تعتبر احتكاك العرب بالغرب على المستويين الثقافي والسياسي نقطة انقطاع تاريخية . وبالتالي نقطة تحول سياسية وايديولوجية . والواقع ان قراءتنا لهذا الكتاب تسمح لنا بأن نعتبر ان الهاجس الرئيسي الذي يتحكم بالكاتب هو هاجس نهاجي . فالعروي لا يأتي بأجوبة نهائية . انه بالدرجة الاولى يحاول ان يطرح الاسئلة وان يبلور نهاجية انتقادية تاريخية تسمح على المدى البعيد بالاجابة على هذه الاسئلة ، باعتبار التحليل الذي يقدمه هذا الكتاب يقوم بعملية عزل للمستوى الايديولوجي عن الواقع الذي انتجه ، جاعلا هذا الواقع يتحرك ضمن مساحة الاحتكاك والصراع الغربي ــ العربي على مستوى البنى الفوقية ، دون الاهتمام بالتطورات التي حصلت على مستوى البنى التحتية والتي سمحت لهذا الاحتكاك والصراع ان يأخذ المسار الذي اخذه .

ان هذه الملاحظة النهاجية ليست تقويما لعمل العروي . انها فقط محاولة لوضعه في اطاره الصحيح . فالحاجة الى دراسة الايديولوجيسة العربية كبنية مستقلة نسبيا لا توازيها سوى الحاجة الى القيام بعملية ربط بالغة التعقيد بين البنى الفوقية والبنى التحتية تسمح بعملية رصد علمية للاتجاهات الحقيقية التي تعصف بالمجتمع العربي منذ نهايات القرن الماضي .

١ ــ عندما يطرح العروي سؤاله العرب والاصالة ، يقوم ثلاثة رجال بمحاولة الاجابة عليه. الشيخ ورجل السياسة وداعية التقنية : يرى الشيخ في التعارض بين العرب والغرب ، تعارضا بين المسيحية والاسلام . والحل الذي يرنعه لحل ازمة العقل العربي امام التخلف هو العودة الى السلف الصالح . مشكلتنا هي في التخلي عن الاسلام . ولا نهضة سوى بالعودة اليه . وهو يتجاهل متعمدا القيام بعملية تحليل نقدية للتاريخ العربي . ولا يرى فيه سوى ايجابيته . في المقابل فان رجل السياسة الليبرالي ينطلق من الانفتاح على الغرب ، بدمج روسو بمونتسكيو ويقوم بعملية نقد بدائية لأزمة المجتمع العربي ، ليصل الى انشقاق تركي عربي، والى ضرورة الديمقراطية والمؤسسات العصرية . اما داعية التقنية فالمشكلة بالنسبة اليه تصبح اكثر سهولة . يكتشف سر تفوق الغرب : الصناعة . لذلك فهو داعية للتصنيع. يقفز مرة واحدة عن ماضيه . لا ينتقده . انه يتطلع الى المستقبل . والمستقبل بالنسبة اليه هو الصناعة اي القوة . انه ذهنيا رجل ارهابي . هؤلاء الرجال الثلاثة يشكلون ثلاث لحظات في الوعي العربي وهذه اللحظات متداخلة في بعضها. لكن كل واحدة منها تحتفظ باستقلالها التاريخي . فمحمد عبده ولطفي السيد وسلامة موسى يختصرون الوعي العربي في موقفه من قضيته الكبرى ، من الغرب . وهم بأصواتهم الحقيقية وبما يمثلونه من اتجاهات فكرية ، يحاولون ، كل على طريقته ، صياغة اجابة حادة على الواقع العربي. والاجابات الثلاث تمثل على المستوى الواقعي فكرات الدولة المستعمرة ( الكولونيالية ) ، والدولة الليبرالية ، والدولة القومية .

ان هذه « النمذجة » ( Typologie ) للايديولوجية العربية المعاصرة تستطيع فعلا ان تختصر الاتجاهات الايديولوجية العربية . لكنها وان امسكت بطرف السلسلة « العلاقة مع الغرب » فانها في الواقع تفتقد الى الطرف الاخر . الى آثار العلاقة مع الغرب على البنى الاجتماعية السائدة في المجتمع العربي . وبالتالي تطرح سؤالا محددا . على اية قواعد مادية نشأت هذه التيارات الفكرية وتحولت عمليا الى واقع سياسي . فالدولة القومية لم تبق مجرد تصور في رأس سلامة موسى بل خرجت الى حيز التطبيق اعتمادا على شريحة اجتماعية في تموز ١٩٥٢ . هنا نود ان نطرح سؤالا : هل يكفي تعميم من نوع « في قرارة كل ايديولوجية من ايديولوجياتنا يوجد حقا مدلول طبقي ، لكنه لا